رحيل أمة

شيخنا/ محمد بن إسماعيل العمراني، والرفيق الأعلى الأسعد

نوادر مسموعاتي على شيخنا العمراني

أ. د. عبد السلام المجيدي

انتقل عن الدنيا الفانية؛ دار الاختبار والابتلاء، إلى دار الـ صدق والبقاء، إلى جوار ربه أرحم الرحماء، علَّا مة اليمن، مجدد مدر سة الاجتهاد الـ شوكاني الإمام القا ضي محمد بن إسماعيل العمراني.. اللهم ارفع درجته في عليين، واخلفه في عقبه في المهديين، واغفر لنا وله أجمعين:

رحل العلم والتأصيل والتعليل والتدليل، ومات التحقيق والتدقيق: حوت سيرته الدرر والجواهر، وازدانت بذكره المآثر، وارتفعت بذكر اسمه المفاخر، وسالت بالثناء عليه المحابر، فانظر لصنعاء المزدانة بجنازة حافلة سدت الطرقات في يوم حزين يخاطبها تلميذه المثيل، فيقول:

صنعاءُ ما لَكِ!!

هذا الصبح مختلفٌ

ماذا أصابكِ؟!

من كربٍ وأحزانِ

أرى بعينيك آحلامًا ممزقةً

وبين جنبيك خطب هز أركاني

أين الجمالُ

الذي عوّدتِ قافيتي

وصوتُ همسك

يحيي نبض شرياني

أين الضياء

وأنوار النبوة في

محراب قلبكِ

يا فردوسي الثاني

رحل تاج العلماء، وقـ ضى غير مغير ولا مبدل ريحانة الفقهاء، ومـ ضى إلى ربه را ضيًا مر ضيًا تاج الورعين الأتقياء.. نحـ سبه كذلك والله حسيبه، ولا نزكي على الله أحدًا:

أحنُّ إلى تلك السجايا وإن نأتْ ... حنينَ أخي ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
وأُهدي إليها من سلامي مُشاكلاً... نسيم الصبا جاءت برَيَّا القَرَنْفُلِ

من هذا الجبل الشامخ الذي أطل على العالم من الركن اليماني؟

ولد شيخنا يوم الاثنين عام ١٣٤٠ هـ ، تصور هذا النور الإسلامي الذي أشرق على اليمن، فقلع أوتاد التعصب، وذسف جبال الجهل والعبث بالإسلام وأهله؛ قبل أن تكر راجعة.. هل تعلم أن الشيخ العمراني كانت له اليد الطولى في ذلك.

إنه شيخنا ولا فخر: أمة في رجل يذكرك بقول ابن مسعود رضي الله عنه إذ يتذكر معاذ بن جبل، فيقول: «إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ»، قَالَ: ثُمَّ أَعَادُوا عَلَيْهِ فَأَعَادَ، ثُمَّ قَالَ: " أَتَدْرُونَ مَا الْأُمَّةُ؟ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَشْيَةَ، وَالْقَانِتُ: الَّذِي يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ".

ها نحن سير على هدى ابن مسعود، فنقول: إن العمراني كان أمة قانتًا لله حنيفًا، ولم يك من المشركين، ولا المبدلين، ولا المحرفين، بل كان ممن قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ الأعراف: ١٧٠

وحدثنا أنه كان وهو فتى يتنقل بين مساجد صنعاء القديمة، ينشر نور العلم الـ صحيح مقابل "مُقالعة المتعـ صبين-باللهجة اليمنية"، وكان يكتب على كتبه:

من كان يؤمن بالله خالـ قه ❖❖ فلا يـ سب أ با بكر ولا عمرا

في عام ١٩٩١ م بعد أن و صلت صنعاء بـ سنة أ شرق علي نور شيخنا - أكرمه الله في عليين- في جامع الزبيري، وبدأت درا ستي عليه في نزهة النظر شرح نخبة الفكر، ثم تتابعت الدروس الجواهر تترى بين يديه:

وكانت عادته - رفع الله مقامه في عليين- أن يقرأ ويُعَلِّق ونحن نتابع ونسمع: فأقرأنا (الدرر البهية) وشرحها (الدراري المضية)، وكلتاهما لمن أسفرت عنه العلوم في مشرق الأرض ومغربها القاضي محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)

ثم مضى في إقرائنا (نيل الأوطار) الكتاب الجامع الفريد الذي شرح فيه الـ شوكاني كتاب (منتقى الأخبار) للإمام أبي البركات ابن تيمية الجد، وهو من أوسع كتب أحاديث الأحكام.

ولا أذ سى أن أذكر أن الـ شيخ لم يكتف بالدراري المـ ضية حتى قرأ علينا (الرو ضة شرح الدرر البهية) لأبي الطيب محمد صديق بن حـ سن بن لطف الله القِنّوجِي البخاري الحـ سيني أمير مملكة بهوبال (ت١٣٠٧ه)، وتعجب من ذلك؛ لأن صديق حـ سن خان كأنما نقل شرحه من الدرر البهية، لكن شيخنا -رفع الله مقامه- كان يأبى إلا أن يسطر آيات الوفاء لمن احتفى بالتراث اليمني، ويعلمنا الاعتدال في الكلام عند النقل عن الأئمة الأعلام.

ومضت المجالس المنيفة، فإذا بشيخنا تمتد أنواره، ليحمسنا لقراءة نوادر الكتب، فـ شرع في كتاب (فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار) للإ مام الحـ سن بن أ حمد بن يو سف بن محـ مد بن أ حمد الرُّباعي الـ صنعاني (ت ١٢٧٦هـ .)، وهذا الكتاب أجمع كتب أحاديث الأحكام، وكان شيخنا يعبر عن أ لمه لتـ ضييع أ هل اليمن لعلمائهم، فكتاب الرباعي أجمع من كل كتب أحاديث الأحكام، ولكن العالم عن غافلون؛ إذ لم ينهض اليمنيون لإبرازه وإعزازه.

وتوالت نجوم العلوم في تدريسه المأمون، فكان من الدروس التي لا أنساها: (وبل الغمام) وهو حا شية قا ضي ق ضاة القطر اليماني محمد بن علي الشوكاني على شفاء الأُوَام في أحاديث الاحكام للأمير الحسين بن بدر الدين محمد الحسني.

ومن نوادر ما درَّ سه من الكتب المبهرة التي تعجب ألا تجد الأيام بها سائرة: كتاب (توضيح الأفكار) حاشية فريدة في علم مصطلح الحديث لبدر الدنيا والدين محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (ت١١٨٢ه) على كتاب (تنقيح الأنظار) لأعجوبة الزمان وبدره محمد بن إبراهيم الوزير (ت٨٤٠ه)، والكتا بان من أعظم كتب الحد يث تحقيقاً، ولكن أين من يخبر الدنيا بجدوى زمزمِ؟

ومن الكتب العظيمة التي تلقح الأفكار، وتـ سلك طلبة العلم وأهله في سـ لك الفقـ هاء، وتنمي الملـ كة الفقهـ ية في الـ طا لب مبكرًا كـ تاب الـ شوكاني العظيم: (الـ سيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار)، وما زلت أ سائل نفـ سي؛ إذ لم أكن أجمع مـ سموعاتي على الـ شيخ في ثبَت وثيق- هل قرأ علينا شيخنا: كتاب (ضوء النهار المـ شرق على صفحات

الأزهار) للحسن بن أحمد الجلال (ت١٠٨٤)؟ أم كان ذلك لكثرة استشهاده به، وتكريره لمقامه؟ ومثل ذلك أسائل نفسي عن الكتاب الأعجوبة: (العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ) لصالح ابن مهدي المقبلي (ت١١٠٨ه)، فإنني الآن لا أذكر هل أقرأنا شيئًا منه أم كان ذلك لكثرة إشارته له؟ فمعظم دراستي على شيخنا كانت قبل عام١٩٩٧م.

أما إقراء الشيخ للبخاري وكتب الحديث، فهو أشهر من أن يُذكر لكثرة تكراره، واستزرته مرة في بيته مع أفاضل من الكويت منهم الشيخ: فيصل العلي -أكرمهم الله- يطلبون منه الإجازة، فاطمأن بنا المقام في مجلسه، ونلنا من أعاجيب أحاديثه وذكرياته العلمية شيئًا وددت أنني فطنت، فوثقته.

وافتتح لنا مرة القراءة في إرشاد الفحول، ولم أكمله معه لانشغالي بالدراسات العليا، ونسيت أن شيخي يقول: أنا خريج الجامع لا الجامعة، وليس الذكر كالأنثى، وكان إذ رآني ابتعدت عن مجالسه لذلك يسألني بعض مسائل، فإن عييت يقول: هيا (روح اقرا)، وبإشارة لطيفة

يذكر المق صرين (أ صحاب القراءة العوراء) كما ي سميهم بما قاله الشوكاني في أول السيل الجرار:

"وأما من لم يكن بهذا المكان ولا بلغ مبالغ أهل هذا ال شأن ولا جرى مع فر سان هذا الميدان فهو حقيق بأن يقال له ماذا بع شك يا حمامة فادرجي:

لا تعذر المشتاق في أشواقه ❖ ❖ حتى تكون حشاك في أحشائه
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ❖ ❖ ولا الصبابة إلا من يعانيها

وهو لا يورد هذه العبارة بأكملها لكنني سمعت منه البيت الأخير أكثر من مرة، أما التاريخ من مشرق العالم إلى مغربه فتعجب من استحضاره لدقائق من نكته وأخباره قلما تجدها عند غيره.

و صحبت القا ضي -رفعه الله مكانا عليا، وكان به حفيًا- في حجه غير مرة حيث كنت تراه وهو في الثمانينات ي سير على قدميه متنقلًا من محل إقامته إلى الحرم بخفة لا تعهدها فيمن هو مثله، ثم يتكئ على

عموده عند المؤذنية حيث يجتمع اليمانيون لتنهال عليه أ سئلتهم، وهو لا يسأم من الإجابة على ما يرد منهم، وتجد بعضهم يميل بنزقه، وسوء خلقه في م ساءلته فإذا به يذهب ذلك عنه بحلاوة أ سلوبه، وجمال تناوله، وأ سلوبٍ فريد عزيز، وفكاهته التي ت صحبها ابت سامة هي الذهب الإبريز.

ولا تجد اليمن مجمعة على إمامة أحد كما أجمعت على إمامة محمد بن إسماعيل العمراني.. يحاول ر سل الظلام أن يمحوا ذكر ذلك النور الـ ساري.. أفي ستطيعون، وقد قال الله تعالى في الحديث القد سي: ((من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب))؟ ها هي الجنائز بيننا وبينهم ت شهد (وكفي بالله شهيدًا). يا مدائن العلم العامرة، ورياض الفقه الوارفة، ويا محابر التعليم، ويا سُرُج التأويل: هل أرى في ضفافكم بـ سمة إمام أو تحقيق علّام أو تدقيق هُمام، أم خُتِمَ بعد شيخنا الباب بقفل ضاع مفتاحه فلا يُرام؟

لقد امتلأت دنيا اليمن بأحاديث شيخنا، وفتاواه ورسائله، وأقضيته التي تمتلئ شجاعة في الحق، وتفيض نفعًا للخلق، وكان من و صاياه التي لا

أذناها لي يوم أتيته قبيل هجرتي من اليمن، وقد دهمتها ظلمات الفتنة كلامًا هذا معناه: أنا سكتُّ، وهذه فتنة، فالزم ما قمت به، واعتزلهم.. هل تعلمون: لمَ قال لي ذلك؟

لقد كان الشيخ عضو هيئة المرجعية، وهي هيئة علمية كنت مقررًا لها، وكانت تحاول الإ صلاح بين الرئيس علي عبد الله صالح والخارجين عليه، فإذا رؤوس القوم من الطرفين قد أ سكرهم عبث التلاعب المحلي والدولي، وظنوا أنهم مانعتهم علاقاتهم الدولية الـ شرقية والغربية من تدمير اليمن، ظنوا أن حذقهم ولقاءاتهم بالسفراء والسفارات تكفي لئلا يكون بيادق في أيدي غيرهم، فما عاد أحد منهم يفيئ إلى رشد أو يستمع لنـ صح، ومال الـ شيخ عن جميعهم، واعتزلهم بدلًا من أن يخوض فيما خا ضه الخائـ ضون.. وما زلت -والله- أعجب لهذه الكرامة في اتخاذ هذا الموقف حيث كان بريق الأحداث يعمي الآخرين.

لقد كان - كان الله به حفيًّا- مسددًا موفقًا، كان حصنًا من الحصون الـ صادقة التي حاربت البدع الآثمة، ووقفت دون مبالاة أمام الظلمات

المتراكمة، ولم يلتفت لإغراء أي طرف من الأطراف التي مـ ضت خبط عشواء تسوقها أماني الطامعين -جعل الله له لسان صدق في الآخرين-:

مات الذي.. ملأ الدنيا بحكمته
وحسن منطقه في خير تبيانِ
مات الذي.. أضحك الشاكي وأسعده
وعلم الناس في أخلاق رباني
اليوم يرحل عنَّا مُلهَم حفِلت
به الديار وأحيا قلبَ إنسانِ
إن مات ما مات فينا روح منهجه
يظل بالنور يهدي طول أزمانِ

ها هو القاضي المبجل.. نور اليمن، وضياؤها يقدم على ربه: لم تغب عني ابتـ ساماته العذبة، وحثه للتنقيب في دفائن الكتب المختبئة: يحدثك حديث الناقد البـ صير عن المذاهب الأربعة ثم عن اختيارات الزيدية، ثم عن آراء الهادوية والإبا ضية، ويكر على ما يـ ستحق من تلك الآراء والمذاهب بالنقد الذي يعلي فيه شأن الكتاب والسنة، ولا يسوي بينها في

الميزان، ويخبر كيف أن مذاهب أخرى لا يمكنك أن تـ سميها مذاهب، لأنها أنشأت ببدعتها وظلامها مصادر للتلقي تختلف عن مصادر التلقي في الإ سلام.. ثم لا يبرح في كثير من مجالـ سه حتى يملأ قلبك من الآهات الـصامتة على حال الإ سلام وأهله، ويذكرك كيف كان يـصبر على نشر أنوار الكتاب والسنة في الأرجاء.. كيف يملؤها بالضياء.

وإذ قد أوجعك قلبُك متألـ ـمًا على حال الـمسلمين يعود إليك الوالد الأب الحاني مفتي اليمن وقا ضيها فيملأ قلبك بالرجاء، ولا تبرح حتى تـ سمع منه نكتة عذبة، وطرفة مـ ستملحة تعيد لك التوازن قبل أن تفقده... أفتلومني حين تراني أشعر باليتم إذ أتاني نعي عالمٍ ملك على الناس قلوبهم؟

فيا رب هذا عبدك محمد بن إ سماعيل العمراني: اجمعني به في ظل عر شك، واجعلنا ممن يباهي بهم النبي صلى الله عليه وعلى آله و سلم يوم القيامة، فيا مدر سة القـ ضاء والفتوى ويا نبراس العلم في الدنيا: سلام عليك يوم ولدت، ويوم مت، ويوم تبعث حيًا.

يصدق فيك قول سعيد بن دحباج:

وفد الحجيجُ على الكريمِ بجمعهِمْ ... وَوَفَـدتَ أنتَ على عظيمِ الشَّانِ
تركوا الديارَ وفارقوها خلفهـمْ ... ورحلتَ نحوَ الواحدِ الدَّيَّانِ
الكُلُّ يرجو عفوَهُ ونوالَهُ ... والفوزَ بالحسنى بخيرِ جِنانِ
فالطُفْ بعبدك يا إلهي واجعلِ الْـ ... ـفردوسَ سُكنى شيخنا العمراني
وارفع له الذكرَ الجميلَ وَأَسْبِغَنْ ... فَضْلًا عليهِ وواسعَ الرضوانِ

ولدك المحب: عبد السلام بن مقبل المجيدي

الاثنين٢من ذي الحجة الحرام١٤٤٢ هـ